مجلة مركز بحوث و دراسات المدينة المنورة

العدد الثالث - شوال - ذو الحجة ١٤٢٣ هـ ديسمبر - فبراير ٢٠٠٣ م

- مسألة مضاعفة الصلوات في المساجد الثلاثة هل تقع في النوافل ؟
- محدث الحرمين عمر بن حمدان المحرسي
- المدينة المنورة في عيون الشعراء
- وصف المدينة عام ١٢٣٠هـ لبركهارت
- المجالس الثقافية المعاصرة في المدينة المنورة
- بدايات الحياة العلمية والأدبية للمرأة في المدينة المنورة
- ملامح النهضة الصناعية بمنطقة المدينة المنورة

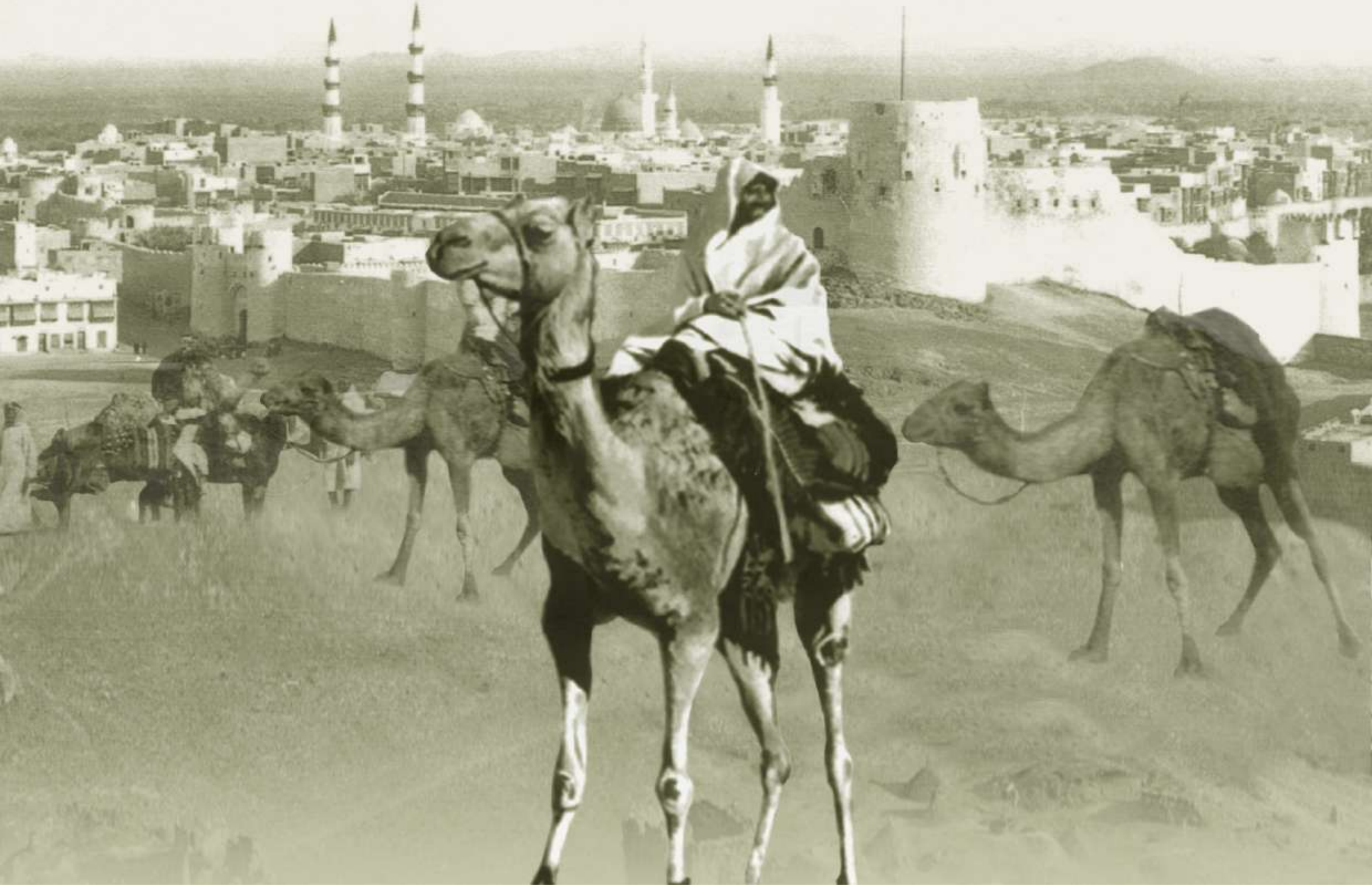

المدينة المنورة في رحلة العبدري

المسماة : « الرحلة المغربية » عام ٦٨٨هـ

ليلى سعيد سويلم الجهني

محاضرة في كلية التربية للبنات بالمدينة المنورة

مدخل

لم تنقطع مواكب الرحالة المغاربة عن الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة . وقد خلَّفوا لنا عدداً غير قليل من المدونات التي تسجل تفاصيل رحلاتهم . وتتباين تلك المدونات تبعاً لتباين وجهات نظر أصحابها ، وتباين الأهداف التي دفعتهم إلى التدوين . فمنهم من قصد تسجيل تفاصيل رحلته وما مرَّ به منذ غادر دياره وحتى عاد إليها ؛ ومنهم من دون ما تلقاه من علم أثناء رحلته ؛ ومنهم من وصف أحوال الناس والمدن التي مر بها .

فيما يلي سنستجلي صورة جديدة للمدينة المنورة كما رصدها أحد الرحالة المغاربة خلال القرن السابع الهجري . أما الرحالة فهو :

محمد بن محمد بن علي بن أحمد ، أبو عبد الله الحيحي العبدري ، صاحب الرحلة المعروفة باسمه . أصله من بلنسية . ونسبته إلى بني عبد الدار . كان من سكان بلدة حاحة في المغرب ؛ توجه منها حاجاً عام ٦٨٨هـ ، فدخل باجة وتونس والقيروان ، ومر بالإسكندرية في ذهابه وإيابه . وليس في المصادر ذكر لسنة وفاته . نشر شاربونو مقتطفات من كتاب رحلته في المجلة الأسيوية ج٤ من الحلقة الخامسة . وكان العبدري قد بدأ بتقييدها في تلمسان التي رحل منها في ربيع الأول من عام ٦٨٩هـ ، ثم عاد إليها في طريقه بعد الحج ، واستقر في بلده ؛ حيث أنجز الرحلة . وله نظم حسن اشتملت الرحلة على كثير منه[1] .

---

(١) انظر : الأعلام ٣٢/٧ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الرحلة غادر العبدري بلدته حاحة ؛ الواقعة بالقرب من مدينة الصويرة على شاطئ المحيط الأطلسي ؛ في اليوم الخامس والعشرين من ذي القعدة عام ٨٨٦هـ ، قاصداً مكة المكرمة والمدينة المنورة ؛ لأداء فريضة الحج ، ثم زيارة الحرم النبوي الشريف . وقد بدأ في كتابة تفاصيل رحلته عند وصوله إلى تلمسان . ويشترك العبدري مع ابن جبير في أن كليهما قد دونا رحلتيهما تدويناً مباشراً في وقتها وليس بعد انتهائها كما هو الحال مع السبتي .

استمرت الرحلة قرابة عامين ، مر العبدري خلالهما وأقام في عدد من المدن والحواضر منها إضافة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة : تلمسان ، الجزائر ، قسنطينة ، تونس ، طرابلس ، برقة ، الإسكندرية ، القاهرة ، الخليل ، القدس ، فاس التي انطلق منها عائداً إلى بلدته حاحة .

وللأسف فإن العبدري لم يُعنَ في رحلته بتحديد مدة بقائه في كل مدينة أو حاضرة من المدن والحواضر السابقة تحديداً دقيقاً منتظماً . وبحسب ما تكشف عنه الرحلة فإنه قد أقام فترة طويلة في تلمسان ، وهذا ما يشير إليه إشارة واضحة عند مغادرتها[١] ، وكذلك تونس والقاهرة اللتان مر بهما في ذهابه وإيابه ، وكان عند مروره بالقاهرة في طريق عودته مريضاً ، وذلك ما اضطره للبقاء فيها حتى تماثل للشفاء[٢] ، وأخيراً الإسكندرية التي ينتهي هذا الجزء من الرحلة بوصوله لها[٣] .

اختط العبدري لنفسه في كتابة رحلته منهجاً صارماً يروم نقل ما يصادفه من أوصاف البلدان وأحوال أهلها . وقد بني ذلك المنهج على الملاحظة « من غير تورية ولا تلويح ، ولا تقبيح حسن ولا تحسين قبيح »[٤] . ولم يَحِد العبدري عن منهجه هذا طوال رحلته ، ولم يخبر فيها إلا عما رآه فعلاً ، ونأى بنفسه عن أن يصف أو يخبر عما لم يره عياناً ؛ لأن « من لم يشاهد الشيء يصعب عليه وصفه ، وقل ما يسلم فيه من الغلط »[٥] كما يذكر في الرحلة نفسها .

---

(١) انظر : الرحلة ٢٤ .

(٢) انظر : الرحلة ١٢٨ ، ٢٣٤ .

(٣) انظر : الرحلة ٢٣٥ .

(٤) الرحلة ١ .

(٥) الرحلة ١٥٨ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

يفيض العبدري - مثله في ذلك مثل ابن جبير والسبتي - بعاطفة دينية منبعها فهمه الصحيح للدين ، تتبدى من خلال تفاصيل رحلته ؛ إذ لا يقبل إلا ما كان له سند من القرآن أو السنة ، ويحمل على الاعتقادات الفاسدة وأتباعها . ومن أمثلة ذلك ما أورده عند وصفه لغار ثور الذي اختبأ فيه الرسول ﷺ ورفيقه أبو بكر رضي الله عنه عند الهجرة ؛ إذ كان له مدخلان أحدهما ضيق أقل من شبرين . وقد ذاع بين المكيين أن من لم يستطع الدخول من هذا المدخل كان ابن زنى ، وهذا ما رفضه العبدري بشدة ووصفه بالمعتقد الفاسد(١) .

وتشي الرحلة في مواضع كثيرة منها بما يتميز به العبدري من رقة طبع تتجلى في اختياره للكلمات المبهجة في وصفه لما يمر به من مدن ؛ فتلمسان مثلاً « مدينة كبيرة سهلية جبلية ، جميلة المنظر ... وأهلها ذوو ليانة ولا بأس بأخلاقهم »(٢) . كما تتبدى رقة طبعه في اشتياقه لأولاده وحنينه لهم وتذكرهم في كثير من المواضع والمواقف ، فعند حلوله بالقيروان مثلاً ، ينظم قصيدة تفيض بأبوة حانية مشفقة يقول في بعض أبياتها :

أصخ سمعاً أوصيك يا بني وصية والد بر حفي
جرى القدر المتيح لنا ببين قضاء جاء من ملك علي
وقد فتت نواكم فؤادي وأشجت بالأسى قلبي الخلي

اكتسبت الرحلة من ناحية أخرى صبغة علمية ناقدة ، إذ كان أول ما اهتم به العبدري بعد وصفه لأي مدينة أو حاضرة يمر بها تتبع الحياة العلمية فيها . والحقيقة أنه لم يرضَ عن الحياة العلمية في كثير من المدن التي مر بها ، حيث ظل يتأسف على ضياع العلم وتدهوره فيها ؛ وإن كان يميز بين فينة وأخرى أفراداً في بعض المدن بعلمهم ، ويذكر ما تلقاه على أيديهم . ولم ينجُ من نقده الحاد للحياة العلمية عدا تونس التي أطال مدحها ومدح حال العلم فيها(٣) .

ولا نستطيع أن نرفض هذا المنحى النقدي الحاد الذي نحاه العبدري وهو يتتبع أحوال العلم والعلماء فيما مر به من مدن لأسباب ؛ أولها : أنه انطلق فيه من

---

(١) انظر : الرحلة ١٨٦ .

(٢) الرحلة ١١ .

(٣) انظر : الرحلة ١٣ ، ٢٧ ، ٣٢ ، ١٠٠ ، ١٣٢ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

نية صادقة سعى صاحبها إلى التنبيه ولفت النظر بعيداً عن أي مآرب شخصية أو غرور أو تعصب أعمى . ثانيها : أن ذلك المنحى يشير - في وجه من وجوهه - إلى نفس تهجس بالكمال ، ولا ترضى بأقل منه ؛ فقد كان يقيس الأمور بمقاييسه هو ، وكان يريد للعالم أن يكون كما يتصوره لا كما كان في الواقع ؛ ولذا كثر نقده[١] ، وهذه مثالية قد لا نقبلها بسهولة لكننا لا نملك لها إلا الاحترام . وآخرها : ما تمتع به الرحالة من معرفة واسعة تجلت عبر صفحات الرحلة فيما أورده من مناقشات علمية في الفقه والحديث والتفسير والجغرافيا والتاريخ واللغة والعَروض . ومما يدل على سعة علم العبدري واطلاعه كثرة الكتب التي يشير إليها وينقل عنها ويرجع إليها في معرض رده أو تعليقه على موضوع ما ، سواءً كان متعلقاً بالفقه أو الحديث أو التفسير أو الجغرافيا أو التاريخ أو اللغة . ومن تلك الكتب : مناهل الحج لناصر الدين بن المنير ، الأمثال الكامنة في القرآن للحسن بن الفضل ، السيرة لابن إسحاق . ولم يكتف الرحالة بالنقل عن تلك الكتب ، بل كان يمحص ويصحح ما قد يرد فيها من أخطاء وأخبار .

تتميز لغة العبدري بجمالها وسهولة ألفاظها وإن كان يستخدم في بعض الأحيان ألفاظاً تحتاج إلى الرجوع إلى القواميس والمعاجم مثل : الموماة ، الدو ، الفدفد[٢] . وقد سعى الرحالة إلى التعبير عن أفكاره بأيسر صورة ممكنة ، وبدا ميالاً إلى السجع ؛ وإن كان سجعه مقبولاً غير متكلَّف ولا مفرط . ومال العبدري كذلك إلى تضمين رحلته كثيراً من الأمثال الجارية على الألسنة ، وأبيات الشعر ؛ سواءً أكانت من نظمه أو من نظم غيره[٣] .

وأخيراً ، تكمن أهمية رحلة العبدري في الصورة التي تقدمها عن الحياة العلمية في المدن والحواضر الإسلامية التي زارها خلال الربع الأخير من القرن السابع الهجري . كما أنها تكشف عما بلغته المعارف والعلوم في ذلك الوقت ممثلة في شخصية العبدري نفسه ، مع كل ما يتمتع به من معرفة عميقة واطلاع

---

(١) انظر : الرحلة غ ، ف .

(٢) انظر : الرحلة ١٠ ، ٦٤ ؛ وتعني الكلمات كلها : الفلاة الواسعة .

(٣) انظر : الرحلة ٣ ، ٣٢ ، ٣٩ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

واسع . والرحلة في الوقت نفسه وثيقة حافلة بمعلومات قيمة عن بعض الأوضاع الاجتماعية في بعض المدن والنواحي التي مر بها العبدري خلال ترحاله .

تفاصيل زيارة العبدري للمدينة المنورة

وصل العبدري إلى المدينة المنورة في يوم الاثنين المصادف للثامن والعشرين من ذي الحجة عام ٦٨٩ هـ ؛ قادماً من مكة المكرمة بعد أدائه فريضة الحج. وقد مكث في المدينة يومين اثنين ، وغادرها يوم الأربعاء المصادف للثلاثين من الشهر والعام نفسيهما . زار خلال هذين اليومين الحرم النبوي الشريف ، ومشاهد البقيع فقط .

المدينة المنورة كما تبدو في الرحلة

(٣ -١) المدينة المنورة كما يصفها العبدري : « مدينة مليحة ظاهرة الشراقة والرونق موضوعة في مستوى من الأرض »[١] .

ونستشف من وصفه إياها بالملاحة حسنَ تنظيمها وعمرانها ، وإن كنا لا نقع في الرحلة على وصف شامل لذلك العمران ؛ فيما عدا إشارات عابرة متفرقة هنا وهناك ، منها : إشارته إلى سورها الذي أثَّر فيه القِدَم ، وتربة السور - كما يذكر - حمراء ، ويبدو أنه بني من اللَّبن ، ولعله جُصص من الخارج لكن طبقات من الجص تساقطت مع مرور الوقت ؛ فكشفت عن مكوناته الداخلية كما نشاهد أحياناً في بعض المباني . وللسور جملة أبواب لم يذكر العبدري عددها ، أو أسماءها ، أو مواقعها بالنسبة للجهات الجغرافية حتى يمكن مقارنة ما لديه بما أورده ابن جبير . وهناك إشارة أخرى إلى دار الوضوء التي بناها الملك المنصور قرب باب السلام - أحد أبواب الحرم - من جهة الغرب ، وهي كما يصفها : مبنى واسع متقن البناء ، أُجري إليه الماء ، وقد قُسم إلى حجرات متجاورة ، يصل الماء إلى كل واحدة منها على حدة . ويصمت العبدري عما سوى ما سبق ؛ لأن عنايته انصبت في معظمها على تتبع أحوال العلم وأهله ، لا أحوال المدن وأهلها .

(٣ -٢) لعل من المستغرب ألا يتتبع العبدري مصادر المياه داخل المدينة ، وهو الذي وصف لنا عند إقباله عليها بئر علي التي ذكرها السبتي من قبل .

---

(١) الرحلة ٢٠٣ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وليس بين أيدينا ما يفسر ذلك غير ما ورد في الرحلة نفسها إذ يقول الرحالة : «ولم يُقمِ الركب بالمدينة إلا يوماً وبعض يوم ، وقد استفرغت وسعي في تأملها وتحفظ صفتها أو ما عسى أن يُدرَك مع قلة الإقامة ، وكثرة الشواغل ، وترادف الوظائف الدينية والدنيوية »[١] . فقِصَر فترة بقائه في المدينة ، مع انشغاله بزيارة الحرم وأداء الصلوات فيه ، والتَّجَهُّز من أجل مغادرة المدينة كلها لم تتح له فرصة للتعرف على نواحٍ كثيرة فيها ، منها مصادر مياهها ، أما فيما يتعلق ببئر علي فقد كان حولها كما يذكر « آثار بنيان ورسوم داثرة »[٢] . ويبدو أن الإهمال قد لحقها ، فلم تجدد ، ولم يُعنَ بما حولها .

على صعيد آخر تحف بالمدينة غابة نخل عظيمة ، وأرضها سبخة - أي مالحة - تحيط بها حرة سوداء وصخور وعرة . ويشي هذا الوصف بدقة الرحالة ؛ إذ تقع المدينة داخل حوض تحيط به الجبال والمناطق الصخرية والحرات من جميع جهاته تقريباً ، ويحتوي هذا الحوض على تربات جيدة مناسبة ، ورغم ملوحة بعضها ؛ فقد نجح أهل المدينة على مر الزمن في استصلاحها ، وتحويلها إلى واحة من أهم الواحات الزراعية في منطقة الحجاز ؛ ساعدهم على ذلك وفرة مياهها ، ومواءمة مناخها للزراعة[٣] .

(٣ -٣) أما أهل المدينة فيقرر العبدري أن أكثرهم من الرافضة . ولن نسترسل هنا في تتبع بداية التشيع في المدينة ، غير أننا نود الإشارة إلى أمرين مهمين في هذا السياق أولهما : أن المدينة لم تخلُ أبداً من أهل السنة ، وكان لهم قاضيهم وإمامهم وخطيبهم . كما أن الحرم لم يخلُ من دروس تعقد في المذاهب الأربعة . وآخرهما : أن المدينة خضعت لفترة طويلة تربو على خمسة قرون لحكم آل المهنا ، وهم فرع من الأسرة الحسينية . وقد تشيعت هذه الأسرة بتأثير الفاطميين الذين عاشت المدينة تحت سيطرتهم لفترة من تاريخها . وكان تشيع آل المهنا تشيعاً إمامياً غير أنه لم يكن تشيعاً متطرفاً في أغلب الأحيان . يدل على ذلك أنهم رفضوا قبول كثير من التقاليد والاحتفالات التي ابتدعها

(١) الرحلة ٢٠٣ .

(٢) الرحلة ٢٠١ .

(٣) انظر : المدينة المنورة : البيئة والإنسان ٢٩٢ -٢٩٣ ، ٢٨٩ ، ١٦١ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الفاطميون ، مثل احتفالهم بيومي عاشوراء ، والمولد النبوي . والحقيقة فأن تشيع آل المهنا لم يَحُل بين عدد من أمرائهم وبين أن يحسنوا معاملة أهل السنة في المدينة ، ويسعوا سعياً متواصلاً لمعالجة الخلافات التي كانت تنشب بين حين وآخر بين السنة والشيعة ؛ نذكر منهم : جماز بن شيحة ، وسعد بن ثابت ، ومنصور ابن عطية ، وغُرَيراً بن هيازع[1] .

إضافة إلى ما سبق فقد اهتم العبدري بتتبع نشاط أهل المدينة الاقتصادي فذكر أنهم يتحينون قدوم أركب الحج من جهات شتى ؛ فيُحضرون ما يبيعونه للحجاج والزوار من تمر وعلف وجمال وغيره ، ويذكرنا هذا بإشارة ابن جبير في رحلته إلى أن أهل الحجاز ؛ وسكان المدينة المنورة من ضمنهم ؛ يعتمدون على الحجاج في معاشهم ، فيؤجرون لهم الجمال ، ويبيعونهم اللبن والماء والتمر والحطب .

(٣ -٤ -أ) يقدم العبدري - مثله في ذلك مثل ابن جبير - وصفاً ضافياً للحرم النبوي الشريف كما شاهده . وتكمن ميزة ما يقدمه عن الحرم في أنه يساعدنا في التعرف على التغيرات التي طرأت على الحرم عقب احتراقه لأول مرة ، وذلك ما لم توفره لنا رحلة السبتي .

والحرم - كما يصفه - على صورة المسجد الحرام في مكة المكرمة ؛ لكنه أقل منه مساحة ، وهو مستطيل يتوسطه فضاء مفروش برمل أحمر ، وتحيط به أروقة من جهاته الأربع كلِّها : خمسة من ناحية الجنوب ، وأربعة من ناحية الشمال ، وثلاثة من ناحية الشرق ، وأربعة من ناحية الغرب . ويتطابق عدد الأروقة الذي ذكره مع عدد الأروقة الوارد في رحلة ابن جبير ، فيما عدا أروقة الجهة الشمالية ، ففي حين أشار العبدري أنها أربعة أروقة ، ذكر ابن جبير أنها خمسة ، ويرجع ذلك إلى أنه لمّا بني الحرم بعد الحريق أُدخِلَ رواق من أروقة الجهة الشمالية في صحن المسجد فصارت أربعة بعد أن كانت خمسة[2] .

ويقول العبدري في معرض وصفه للحرم : « ووسطه فضاء مفروش برمل أحمر »[3] ، ويُفهم من تخصيص الفضاء بوصف ما فيه ؛ أن ما يحيط به يختلف

---

(١) انظر : التاريخ الشامل للمدينة المنورة ٢/١٣٥ -٢٨٨ .

(٢) انظر : وفاء الوفا ٢/٦٧١ .

(٣) الرحلة ٢٠٤ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

عنه وليس مفروشاً بالرمل ، وإن كان من الممكن أن يكون الحرم كله مفروشاً بالرمل - كما ذكر السبتي في رحلته - وبذلك يكون الرحالة قد قصد بالفضاء المنطقة المكشوفة التي تتوسط الحرم .

وكما يذكر العبدري يوجد في الناحية الشمالية من هذا الفضاء الذي يتوسط الحرم « نخلات صغار ناضرة »[١] ظهر عليها أثر الرعاية والاهتمام . ويبدو من وصفه إياها بكلمة : « صغار » أنه لم يمضِ عليها وقت طويل ، وهذا ما يفسر لِمَ لم يذكر السبتي شيئاً عنها في رحلته .

والحرم كذلك عالي السقف ، وقد بيضت جدرانه . وليس ثم تفاصيل عن زينتها وما عليها من نقوش ورسوم ، غير أننا قد نستشف من قول العبدري « عجيب المنظر »[٢] ما بلغته تلك الزينة والنقوش من جمال .

وقد كُسيت أعمدة الحرم بالفضة ، وكانت المسافة بينها واسعة . ولم يُحصِ الرحالة عددها ، لكن هناك من قال له إنها تبلغ مائتين وستة وسبعين عموداً . ويقل هذا الرقم عن ذاك الذي أورده ابن جبير في رحلته . ولنا ألا نعتمد عليه ؛ لأن العبدري نفسه يبدو غير متأكد منه .

أما المحراب فلم يكن فيه آنذاك - كما يذكر العبدري - « شرافات ولا تزويق »[٣] ، ويدل كلامه على أن المحراب كان فيما مضى مزيناً بالنقوش ، ويوجد في جداره جسم ناتئ براق أسود أملس كأنه رأس خشبة من أبنوس مخروط ، كان موجوداً في جدار القبلة أثناء حياة الرسول ﷺ ، وكان ﷺ يتمسك به إذا أقيمت الصلاة ، ثم يلتفت لينادي بتسوية الصفوف . وكما يصف العبدري ؛ فإن الناس يتحايلون للمس هذا الجسم تبركاً به ، وهذا ما لم يرق له ؛ لأن الحجاج يرمون ثيابهم إليه ، وربما حمل بعضهم بعضاً للمسه وهم لا يعرفون ما هو في الحقيقة « كما جرت عادتهم في غيره »[٤] .

---

(١) الرحلة ٢٠٤ .
(٢) الرحلة ٢٠٤ .
(٣) الرحلة ٢١٧ .
(٤) الرحلة ٢١٩ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وبالنسبة للمنبر ، فقد احترق - كما يخبرنا العبدري - أثناء حريق الحرم ولم يبق منه عدا قطعة وضعت داخل منبر آخر ، بإزاء ثقب يُدخل الناس أيديهم منه ؛ فيتمسحون بها تبركاً[١] . وقد أرسل هذا المنبر الظاهر بيبرس عام ٦٦٦هـ ، وهو الذي أشرنا إليه في رحلة السبتي . والمنبر كما يصفه العبدري : ساذج ، والكلمة معربة عن الفارسية وتعني ما لا نقش فيه .

أما الحجرة الشريفة فإن أهم ما طرأ عليها أنها كُسيت بالرخام من أسفلها حتى السقف ، فيما كان الرخام - في رحلة ابن جبير - يكسو ثلثها السفلي فقط . وقد أحاط بها حاجز من الشبك الخشبي ذو بابين ، أحدهما في الغرب ، والآخر في الشمال . أما الحجرة نفسها فكانت مصمتة بلا أبواب ، وقد أُسدلت عليها كسوة جميلة ؛ لكنها غير سابغة ، تجدد مرة في كل عام .

وفي ركن الحجرة الشريفة الواصل بين جداريها الغربي والجنوبي صندوق من الخشب داخلٌ في أصل الجدار ، بإزاء رأس الرسول ﷺ ، وهو الصندوق الذي أشار إليه ابن جبير من قبل في الموضع نفسه . وكان هذا الصندوق قد احترق في حريق الحرم ، ولم يبقَ منه غير حليته المصنوعة من الفضة . فما كان من القائمين على عمارة الحرم بعد الحريق إلا أن صنعوا صندوقاً آخر مثله وضعت عليه حلية المحترق بعد إحكام صوغها وتمويهها بالذهب . وقد جعلت بقايا الصندوق المحترق داخل الجديد الذي ثُبت في المكان نفسه[٢] .

وإلى شمال الفضاء الذي يتوسط الحرم ثَمَّ بيت مربع جيد البناء ، يستعمل مخزناً . وكان ابن جبير قد سماه في رحلته : قبة الزيت ، وذكر أنه يقع في المنطقة نفسها ، ويسهل توسطه - في الواقع - الوصول إليه من أي جهة ، كما أن احتلاله لحيز خالٍ من الحرم يوفر قدراً من التهوية للمخزونات ، ويمثل عامل وقاية أولي في حال حدوث حريق أو انهيار البناء .

أما أبواب الحرم فالمفتوح منها أربعة ، اثنان منها جهة الغرب هما : باب السلام ، وباب الرحمة . وآخران جهة الشرق هما : باب جبريل ، وباب النساء . وكما هو ملاحظ فإن اثنين من الأبواب ظلا محتفظين باسميهما اللَّذين وردا في

---

(١) البركة لا تحصل بالتمسح بالقبور أو الجدران فذلك من البدع والأمور المنكرة التي حذر منها الشرع .

(٢) انظر : وفاء الوفا ٥٧٤/٢ -٥٧٦ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

رحلة ابن جبير هما : باب الرحمة وباب جبريل . فيما تغير اسما البابين الآخرين من بابي : الخشية والرجاء إلى بابي : السلام والنساء .

وَثَمَّ باب في الجهة الشرقية من الحرم يقود إلى نفق في الأرض ذي درج يؤدي إلى حجرات في الجهة الجنوبية ، يُقال إنها حجرات أزواجه ﷺ ، غير أن العبدري يرفض هذه المقولة ؛ لأن حجرة عائشة رضي الله عنها هي الحجرة الشريفة حيث قبره ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فيما أدخلت الحجرات الباقية في التوسعة التي لحقت الحرم في عهد الوليد بن عبد الملك . والعبدري محق فيما ذهب إليه ؛ إذ أجمعت أخبار المؤرخين على أن حُجَر أزواجه ﷺ أدخلت في الحرم بأمر الوليد(1) . ويشير تعليق العبدري ورفضه لما تناقله الناس عن هذا الباب إلى ما أشرنا إليه من سعة إطلاعه ، وسعيه الدؤوب إلى التثبت مما ينقل ، ومحاكمته محاكمة عقلية دقيقة . كما أنه يدعم ما ذهبنا إليه من أن هذا الباب ليس خوخة أبي بكر رضي الله عنه المذكورة في الحديث . ولعل من الطريف أن نلاحظ أن الباب الذي كان يؤدي في رحلة ابن جبير إلى دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، صار في رحلة العبدري - أي بعد ما يربو على قرن من الزمان - يؤدي إلى حجرات أزواجه ﷺ . ويكشف لنا هذا التباين أن بعض الأخبار لا يرجع الفضل في شيوعه إلى صدقه ؛ بل إلى تناقله بين العامة وتكراره دون تمحيص .

وللحرم ثلاث مآذن ، وعدد المآذن هو نفسه الذي ورد في رحلة ابن جبير من قبل ، غير أن مواقعها قد اختلفت ؛ ففي حين ذكر ابن جبير أن اثنتين تقعان على الركنين الشمالي - أي : على ركني الجدار المواجه للشمال - والأخيرة في الركن الشرقي المتصل بالقبلة ؛ فإن العبدري يشير إلى أن اثنتين تقعان على الركنين الجنوبيين - أي على ركني الجدار المواجه للجنوب - أما الأخيرة ففي مؤخرة المسجد . والحقيقة أننا لا نعتقد أن موقع المآذن قد تغير ، إذ ورد في المصادر التاريخية أنها بقيت في مواقعها التي ذكرها ابن جبير حتى عقب إعادة بناء الحرم بعد احتراقه مرة أخرى عام ٨٨٦هـ(2) . ويبدو أن تصحيفاً لحق عبارة

---

(١) انظر : السابق ٢/٥١٦ .

(٢) انظر : وفاء الوفا ٢/٥٢٧ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

العبدري التي عرض فيها للمآذن وقال فيها : « وفي المسجد ثلاث صوامع [مآذن] اثنتان على الركنين الجنوبيين وواحدة في مؤخر المسجد »[١] . ووقع التصحيف - كما نظن - في قوله : الجنوبيين فربما كانت الجوفيين ؛ أي الشماليين ، إذ يُطلق المغاربة كلمة الجوف ويقصدون بها الشمال . وهكذا يتبين لنا أن مواقع المآذن ظلت كما هي ، اثنتان على ركني الجدار المواجه للشمال ، أما الأخيرة فعلى الركن الشرقي الجنوبي ، وهي التي قصدها العبدري بقوله : في مؤخر المسجد .

يشير العبدري كذلك إلى قبة مصمتة بيضاء تميل إلى الدكنة بنيت فوق الحجرة الشريفة . ورحلته أول رحلة تذكر هذه القبة ؛ وذلك لأنها لم تكن قد بنيت قبل عام ٦٧٨هـ ، عندما أمر السلطان المنصور قلاوون[٢] ببنائها . والقبة كما يصفها عالية السمت ، ترى من مسافة بعيدة ، فتبدو للعين - وهي تعلو ما حولها من بناء - كأنما تنتظر إقبال حبيب ، أو تندب رحيله ، ناطقة بغير لسان ، وواعظة بغير كلام . ويدهشنا العبدري وهو يستنطق القبة بهذه الصورة ، مؤكداً لنا في الوقت ذاته ما أوردناه من قبل عن رقة طبعه التي تنعكس على ما يقدمه من أوصاف وصور ، وما يتخيره من عبارات وجمل . ولعل ما حرك مشاعره أن القبة تعلو قبره ﷺ ، وليس ثَمَّ بقعة أشرف من قبره ﷺ .

وكان العبدري قد التقى أثناء تواجده بالمدينة المنورة بإمام حرمها الشريف ، لكنه لم يذكر اسمه ، وقد تذمر - إضافة إلى ذلك - من جهله وقلة ما لديه من العلم والمعرفة . ولا نستطيع أن نقبل بلا تردد ما يصفه به من جهل ؛ خاصة إذا عدنا إلى ثناء السبتي - الذي زار المدينة قبل العبدري بأربعة أعوام - على إمام حرمها آنذاك : أحمد بن عثمان بن عمر المصري ، واستجازته إياه في رواية كل ما قرأه عليه . وليس من المستبعد أن يكون الإمام قد تغير خلال

---

(١) الرحلة ٢٠٥ .

(٢) المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي ، أبو المعالي (٦٢٠ -٦٨٩ هـ) : أول ملوك الدولة القلاوونية بمصر والشام . كان من المماليك ، أعتقه الملك الصالح نجم الدين عام ٦٤٧ هـ ، فأخلص الخدمة للظاهر بيبرس . خلع العادل وتولى السلطنة منفرداً في عام ٦٧٨ هـ . وكان من أجل ملوك المماليك قدراً ، وأكثرهم آثاراً . الأعلام ٥/٢٠٣ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الفترة الفاصلة بين الرحلتين . وربما تسرع العبدري في إصدار حكمه على الرجل ، ولم يطلع على كل ما لديه من علم ومعرفة ؛ خاصة مع قِصَرِ المدة التي قضاها في المدينة .

أخيراً ، فإن ما ورد في رحلة العبدري من معلومات عن الحرم النبوي الشريف - رغم أن دقته لا توازي دقة ما ورد لدى ابن جبير - يحظى بالأهمية نفسها التي كانت لرحلة الأخير ؛ إذ يتبين من خلاله ما آل إليه الحرم بعد إعادة بنائه ، كما أنه يوثق ما كان عليه الحرم قبل احتراقه مرة أخرى في الثلث الأخير من ليلة الثالث عشر من شهر رمضان عام ٨٨٦هـ . خاصة أن الرحلات التي تلت لم تولِ هذا الجانب العناية التي يستحقها كما سنرى لاحقاً .

(٣ -٤ -ب) بالنسبة لبقية مساجد المدينة المنورة ، فإن الرحلة تكاد تخلو من أي ذكر لها عدا الإشارة الوحيدة التي يوردها عن مسجد قباء . ونستشف من إشارته تلك أنه لم يخرج لزيارته ؛ بل اكتفى برؤيته من بعيد حيث يقول «وقباء منها [من المدينة] في جهة الشرق تلوح مبانيه وصومعته [مئذنته] من المدينة »[1] . والغريب في قوله هذا أنه يحدد موقع قباء في الشرق رغم أن قباء جنوب المدينة ، ويبدو أن الرحالة يضطرب في تحديد الجهات ؛ وهذا ما قد يفسر أيضاً الخلط الذي صادفناه في تحديد موقع مئذنتي الحرم .

(٣ -٥) اهتم العبدري بالخروج لزيارة مشاهد الصحابة والصالحين في البقيع لم يخرج لغيره . ومشاهده - كما يصف - علَتها مبانٍ وقباب متقنة ؛ أشهرها وأتقنها صناعة : قبة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، التي كانت عالية واسعة ذات منظر جميل . تليها قبة العباس رضي الله عنه . أما قبة الإمام مالك بن أنس فقد بلغ ارتفاع القبر فيها مستوى الصدر ، وفُرش أعلاه بالحصى ، وأقيمت إزاء رأسه شاهدة من حجر كُتب عليها : « توفي الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه في ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة ، ومولده في ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين »[2] . ولم يرد في الرحلتين السابقتين ذكر لهذه الشاهدة ، ويبدو

---

(١) الرحلة ٢٠٣ .

(٢) الرحلة ٢٠٤ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أنها أقيمت في وقت متأخر عنهما . وتحت كل قبة أو بناء مرَّ بهما العبدري يوجد أكثر من قبر واحد عدا قبة الإمام مالك بن أنس ؛ إذ لا يرقد تحتها غيره .

(٣ -٦) لا شك أن رحلة العبدري كانت إلى جانب أداء الفريضة رحلة بحث عن العلم ، مثلها في ذلك مثل رحلة السبتي ، وإن كان ثَمَّ تباين واضح بينهما في طريقة التناول . ففي حين اهتم السبتي بملاقاة أهل العلم في المدن التي مر بها للتلقي عنهم واستجازتهم ، فإن العبدري اهتم بتقصي أحوال العلم والعلماء في المدن التي مر بها ؛ ولم يعن بالاستزادة من علم من لقيه بقدر ما عني بالحكم على ما لديهم من علم ومعرفة مقارنة بما لديه وما يعرفه .

ولم يشذ العبدري في وصفه للحياة العلمية في المدينة المنورة عن هذه القاعدة ، وانطلاقاً منها يذكر أنه لم يرَ في المدينة « مع شدة البحث وإلحاح الطلب وتكرار السؤال من هو بالعلم موصوف ، ولا من هو بفن من فنونه معروف »(١) ؛ حتى إن إمام الحرم النبوي الشريف ، الذي يفترض أن يتمتع بالحد الأدنى من العلم الذي يمكنه من أداء واجباته ؛ لم يسلم من ذم العبدري ونعته إياه بالجهل . ولا بد أن نُذَكِّر هنا أن الرحالة لم يصدر أحكامه الحادة إلى حد ما على الحياة العلمية في المدينة وغيرها من المدن التي مر بها اعتباطاً ، أو إشباعاً لهوى في نفسه ، بل استناداً إلى عدد من الأسباب التي عرضنا لها من قبل في توطئتنا لرحلته ، لعل من أهمها : سعة معرفته التي كان يقيس معارف الآخرين بها ، ويبحث عمن يفوقه فيها .

والواقع أننا لا نعتقد أن الحياة العلمية النشطة في المدينة المنورة التي وصفها لنا السبتي في رحلته قد همدت بغتة ، وتحولت إلى قفر يعمه الجهل والفوضى . ومما يرجح ذلك أن العبدري نفسه يعود بعد وصفه للحياة العلمية فيها فيذكر أنه التقى في الحرم أحد المجاورين وهو : عفيف الدين أبو محمد عبد السلام بن محمد بن مزروع البصري التمار ، وهو كما يصفه شيخ حسن الهيئة ، لطيف المعشر « رحل في البلاد ، وسمع من الشيوخ ، واستقر به القرار آخِراً بالمدينة مجاوراً »(٢) . وقد استجازه العبدري فأجازه في كل ما يرويه . والبصري هذا

---

(١) الرحلة ٢٠٦ .

(٢) الرحلة ٢٠٧ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

كان ممن لقيهم السبتي من قبل من علماء المدينة ، وترجم لهم في رحلته التي يفصلها عن رحلة العبدري أربعة أعوام. ولا نجد ما نختم به وصف الرحالة للحياة العلمية في المدينة إلا الإشارة إلى أنه لم يمكث فيها عدا يومين كما ذكر في رحلته ، وهي فترة قصيرة جداً قد لا يتسم الحكم الصادر أثناءها بالموضوعية.

(٣ -٧) نظم العبدري وهو بالحجاز قصيدة في مدح الرسول ﷺ. وكما يذكر فقد سمعها منه الشيخ عفيف الدين المذكور سلفاً ، وسمعها معه طلبة السماع فقيدوها ، وأجاز لهم الشيخ ذلك بخطه. تتألف القصيدة من مائة واثنين وأربعين بيتاً تفيض عذوبة وسهولة ، لا تكلف فيها ولا تَقَصُّد لغريب الألفاظ. ويمكن أن نقسمها إلى ثلاثة أجزاء ؛ أولها -وهو أقصرها- توجيهات ونصائح يوجهها الرحالة لقارئه ، حاضاً إياه على المبادرة ، واغتنام الفرصة ، وتشمير ثيابه لنيل ثواب الارتحال إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة. ثانيها : يخصصه لمكة المكرمة وما على قاصدها أن يفعله ؛ مختصراً مناسك الحج اختصاراً غير مخل. آخرها : وهو أطول الأجزاء ، فيقصره على الحديث عن المدينة المنورة ، طيبة ، معهد الأحباب ، ربع المصطفى ﷺ ومنزله ؛ ومن ثم ينتقل إلى مدح الرسول ﷺ ممهداً لذلك بالحديث عن نبوته ﷺ التي بشر بها عيسى عليه السلام ، وهتفت بها الهواتف في الجاهلية ، وأنبأ بها العرافون والكهنة والرهبان. ومهما قيل فيه ﷺ فقد :

قصر اللسان عن الوفاء بحقه — إن رمت ذاك تكل عنه وتجهد
فانظم بقدرك لا بقدر كماله — وارفع صحيفة غارم لم يجحد

ويظهر من خلال القصيدة أن العبدري حدث نفسه بالمجاورة في المدينة ، وفكر فيها ؛ حتى إنه تخيل ما قد يشعر به من وحدة واغتراب ، واستعد لمواجهتهما :

ونويت أني إن عدمت مساعدا — صابرت فيك توحدي وتفردي
وحلفت لا طاوعت فيك مفندا — تباً لمصغٍ فيك نحو مفند

غير أن أموراً حالت بينه وبين المجاورة من أهمها -كما يتضح من القصيدة نفسها- أبناؤه الصغار الذين ارتبط بهم ارتباطاً قوياً ، وهم يتشوقون لعودته إليهم. والعبدري يصوغ ذلك في أبيات تشي بأبوته الحانية ، وإنسانيته التي لا يخجله معها أن يطلع الآخرون على ضعفه ؛ فيقول :

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

لولا موانع ما قضاه وصبية تبكي لكل مسجع ومغرد
خلفتهم في غربة تبكي لهم ورق الحمام بكل غصن أملد
في منتهى الغرب الذي ما دونه إلا تلاطم موج بحر مزبد

ويعزي الرحالة نفسه أنه - وإن اضطر للعودة إلى طفله الصغار - سيفني ما بقي من عمره :

شوقاً إليك مكرراً ذكراك في ضوء النهار وجنح ليل أربد

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة